

## ٩ - بين القاهرة وطوس

من طوس الى طهران

للدكتور عبد الوهاب عزام

رحنا المشهد عائدین إلى طهران والساعة عشر إلا ربعا من صباح يوم الاثنين سادس رجب (١٥ أكتوبر) فررنا بقربة اسمها قدمگاه (موضع القدم) وقد ذكرتها في سيرنا من نيسابور إلى مشهد وأرجأت الكلام عنها إلى الاياب إذ لم نمرج عليها في الذهاب . وقتت السيارة فنزلنا وملنا ذات اليسار فدخلنا ساحة بين جدارين فيها طاقات لا أبواب لها بناها بعض السلاطين ليأوى إليها المسافرون . ثم صعدنا إلى مستوى ينحدر منه مجرى ماء . فأنهينا إلى شجرات عادية بجانبها حجرة كبيرة . ولقينا قيم المكان فقال أنا كشيخ قدمگاه . قلنا بإساح إن الكشيخ رجل الكنيسة وأنت رجل مسلم ، فقال أنا خادم القدم المبارك . ولجنا الباب فرأينا على يسارنا بئيرة فيها حجر بركاني أسود فيه أثر قدم . قال دليلنا هذا قدم الامام علي الرضا ، ثم خرج بنا إلى حجرة أخرى في وسطها بركة صغيرة مستديرة بها ماء صاف يشف عن سمكات صغيرة يجلبن بين سطحه والقاع . قال هذه عين الامام الرضا فاشربوا . فضلنا أيدينا داعين منشدین :

« وعين الرضا عن كل عيب كليله »

نزلنا سائرین إلى الجادة فشرينا الشاي وقوفاً واستأنفنا السير إلى نيسابور . ونزلنا في الخيام التي ضربت لنا من قبل عند قبر الخيام فاسترحنا وطعمنا .

خرجنا من نيسابور والساعة ثلاث بمد الظهر ، فوردنا سبزوار ستا إلا ثلثا ، فأوينا إلى النزل الذي وصفته من قبل ، وبعد العشاء اجتمع بعضنا في حجرة الأستاذ العلامة كوبر على زاده محمد قواد مندوب الحكومة التركية ، وجاء مفتون من أهل القرية ففشيوا من رباعيات الخيام وغيرها ضاربین على النار (آلة تشبه العود) فطربنا لهذا الفناء وهذا المجلس الذي جلس فيه علماء من أمر شتى دون ترتيب ولا تكلف ، بعضهم على السرر

والآخرون على الأرض ، فأخذنا نوقع بأيدينا على نغمات النار . ولا أنسى الأستاذ كريستنسون الداغركي وقد مدّ رجله وأمسك عود الدخان ( البيبة ) بضمه ونشط للصفق على أنغام الموسيقى .

رحنا سبزوار والساعة تسع ونصف ، فبلغنا داوور زن بمد ساعة ونصف ونزلنا بها منزلنا الأول فاسترحنا وتغدينا . ثم فارقناها والساعة واحدة ونصف ثم شاهرود ، وكان بردها لا يزال عالقا بي ، فقلت لأصحابي : سأترك في شاهرود النلة التي أخذتها منها . قال الأديب رشيد الياسمي : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وبعد ساعة وقفنا على قرية اسمها عباس آباد فجاء شبان يمرضون علينا من صنعة القرية مباح وأزراراً وأشياء أخرى مصنوعة من حجر أزرق ضارب إلى السواد فاشترينا منها للذكرى . ثم سرنا فررنا بزیدر فنزلنا بها ربع ساعة فشرينا الشاي عند شجيرات وقناة هناك ، وأسرعنا السير ليتسنى لنا أن نمرج إلى بسطام فنزور أبا يزيد قبل الغروب ، فمطبت سيارتنا على مقربة من شاهرود ، وذهبت فضلة الوقت في إصلاحها فاضطررنا أن نمثل عن بسطام إلى شاهرود فوردناها بمد المغرب ونزلنا في دارين داخل البلد استبدلنا بالدار التي بظاهر البلد بمد الذي أصابنا من بردها في الطريق إلى المشهد . وبكرت أنا والأستاذ عبد الحميد العبادي والأديب أحمد الصراف آملين أن نزور بسطام ونرجع قبل أن يتأهب أصحابنا للسفر ، فمازلنا ننتظر سيارتنا حتى فقدنا الرجاء في زيارة أبي يزيد فسرنا مع الراكب آسفین مرسلین لاشيخ الصوفي بحيتنا على البعد

سرنا عن شاهرود والساعة سبع ونصف من صباح الأربعاء مزمعين أن نبلغ طهران عشية اليوم . وبين شاهرود وطهران أربعائة كيل وثلاثة . وردنا دامغان بمد ساعة ، فرأينا أن تلبث بها لترى بعض مشاهدها ولم تكن وقفناها في ذهابنا إلى المشهد ، كانت دامغان مدينة قومس ، وهي اليوم من ولاية طبرستان وتبعد ٦٤ كيلاً من استراباد ، جنوبي جبال البرز . على حدود العراق العجمي وخراسان . ويقال إنها في موضع مدينة حكتمبيليس إحدى المدن العظيمة في مملكة الأشكانيين القديمة ، وأن اسكندر المقدوني أدرك دارا الثالث قتيلاً على مقربة منها .

قال ياقوت راويا عن مسعر بن مهلهل : « الدامغان مدينة كثيرة الفواكه . وفاكمتها نهاية . والرياح لا تنقطع بها ليلاً ونهاراً . وبها مقسم للماء كسروى عجيب يخرج ماؤه من مغارة في الجبل ثم ينقسم إذا انحدر عنه على مائة وعشرين قصباً لمائة وعشرين رستاقياً لا يزيد قسم على صاحبه ، ولا يمكن تأليفه على غير هذه القسمة . وهو مستطرف جداً ما رأيت في سائر البلدان مثله ولا شاهدت أحسن منه »

قال ياقوت : « قلت أما جئت إلى هذه المدينة في سنة ٦١٣ مجتازاً بها إلى خراسان ، ولم أر فيها شيئاً مما ذكره لأنى لم أقم بها » وأنا أقول قول ياقوت ، وأزيد أن مقسم هذه المياه تهدم إبان الغارة الأفغانية فيما يقال

وإلى الشمال الشرقي من المدينة ، ينبوع عظيم يسمى چشمه على ( ينبوع على ) يزوره الناس ، ويزعمون أنه بفيض على حجرية أثر من حافر فرس الرسول صلوات الله عليه . وقد بنى حوله فتح على شاه سنة ١٢١٧

وقال ياقوت : « وبينها وبين كردكوه قلعة الملاحدة يوم واحد ، والواقف بالدامغان يراها في وسط الجبال »

سألنا عن الآثار الساسانية التي بدامغان فقبل لنا إنها بعيدة عن البلد ، وطريقها غير ممبدة ، وهي ليست ذات خطر . ثم هدينا إلى بناء إسلامي قديم ، فدخلنا إلى فناء فيه قبور لاطئة بالأرض ، ينتهي إلى حجرة كبيرة في وسطها قبر كبير عليه سياج من الخشب ، وعليه كتابة قديمة كثيرة ، وإلى يسار الداخل قبر صغير لاسياج له ، فأما الضريح فقبل إنه لأحد أبناء الأئمة العلويين ، وأما الذي إلى يسار الداخل ، فقبل إنه لشاهرخ ، ورأينا حجرة أخرى مغلقة كتب عليها : أمر بمارة هذا البناء شاهرخ . وقد ظننت أنه شاهرخ بن تيمورلنك ، وعجبت كيف دفن هنا وقد مات في الري . ثم تذكرت شاهرخ حفيد الملك نادرشاه ، الذي أمره آقا محمد القاجارى في دامغان ، ومازال يعذبه ليسلم إليه حزائن جنده نادرشاه حتى مات سنة ١٢١١ ، فقلت هذا قبر الأمير الضرير المنكود الطالع

بلغنا سمنان والساعة إحدى عشرة وربع فنزلنا منزلنا الأول في المصنع الذي بظاهر البلد . وقلت للأستاذ المبادئ لا يفوتنا اليوم

أن نرى مسجد الجمعة في سمنان . فقلنا للأديب سيف آزاد صاحب مجلة « إيران باستان » فراقنا وصحبنا في الطريق أحد ضباط الشرطة ، ودخلنا من باب كبير ترينه نقوش وتماثيل وكتابة فيها اسم ناصر الدين شاه إلى طريق على جانبيها أبنية للجند وخرجنا من باب آخر فسرنا في شارع مشجر وأزقة ضيقة ، ثم ترجلنا وتركنا السيارة وتخللنا الطرق حتى انتهينا إلى مسجد صغير جميل ، قرأنا فيما عليه من كتابة اسم الشاه طهماسب الصفوى

ثم ذهبنا إلى مسجد الجمعة وهو قديم عظيم ، وأقدم ما فيه منارته ، وهي فيما يظهر بقية مسجد كبير بناه السلاجقة ثم هدمه التتار فأقيم المسجد الحاضر على جانب من عرصته . ثم زاد فيه إيواناً كبيراً أحد وزراء السلطان شاهرخ بن تيمور سنة ٨٢٨ وخرجنا من مسجد الجمعة فمشينا في سوق طويلة مسقوفة تنبئ بعظم المدينة في الماضي ، وقد أنشدنى الأديب سيف آزاد في مسجد سمنان بيتاً معناه

« وأسفا على المسجد الذى في سمنان ، إنه يوسف في السجن » (١)

اجتمعنا على الغداء في سمنان ، ونحن نعلم أن الركب سينفترق في طهران فلا يجتمع ، فتكلم بعض الواقفين شاكرًا حكومة إيران ، والموظفين الذين رافقونا في مسيرتنا إلى طوس وإيابنا ، وأجاب السيد ابتهاج والأديب رشيد الياسمى معربين عن سرورهم وافتخارهم بمصاحبة الضيوف الخ ، وأرسلنا برقية إلى وزير المعارف نبلفه والحكومة الإيرانية شكرنا . وكان الوزير قد تخلف في المشهد هو والوزراء الآخرون ، ليصبحوا جلالة الشاه في سفره إلى جرجان . . .

ركبنا السيارات والساعة اثنا عشر وربع بعد الظهر ، فبدأ بنا السير حتى نزلنا في فيروز كوه فاسترحنا وشربنا الشاي في مطعم هناك . ثم ركبنا ما نزلنا في فيروز كوه ( جبل فيروز ) قمه وشعابه ووديانه حتى عيل الصبر ، وأظلم الليل ودهقنا الأعياء . ثم دخلنا طهران والساعة ثمانية من المساء فأوينا إلى الفندق بشق الأنفس

( يتبع ) عبر الرفاق عزائم

(١) صيف برمسجدك در سمنان بود يوسف حتى كه در زندان بود